

الخطاب السياسي النهضوي العربي.. من الانفتاح الى الانغلاق

Discourse Renaissance Political.. From Openness to Isolation

د. مصطفى دحمانى*

¹ جامعة طاهري محمد -بشار (الجزائر)، mustapha.dahmani@univ-bechar.dz

تاريخ النشر: 2025/12/27	تاريخ القبول: 2025/11/09	تاريخ الاستلام: 2025/08/31
-------------------------	--------------------------	----------------------------

ملخص: هدفت هذه الدراسة إلى التعرف على السياق التاريخي الذي نشأ فيه الخطاب النهضوي العربي كان سؤاله: كيف نتقدم؟ وفي هذا البحث كان التركيز على خطاب الإصلاحية العربية، وذلك بالكشف عن الإطار المرجعي والفكري لزعماء الإصلاح في العالم العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ولقد توصلت الدراسة إلى أن خطاب الإصلاحية العربية في البداية التكوين كان خطابا منفتحا على العصر، متقبلا للحدثة ومعجبا ومكتشفا للدولة الحديثة، وناهلاً ودون تردد من منبع الفلسفة السياسية الحديثة كان خطابا يحركه هاجس النهضة والتقدم، لكن هذا الخطاب عرف تراجعاً ونكوصاً وعودة الى الوراء الى العصر الوسيط إذ تشكل خطاب الإحيائية الإسلامية الذي كان سؤاله: كيف نحمي الذات ونحافظ على الهوية أو بصيغة أدق كيف نغلق؟ وبالتالي فإن خطاب الإصلاحية العربية الذي قطع مع مفاهيم العصور الوسطى عاش لحظة انفتاح وتصالح مع العصر ومع الحدثة في بداية التكوين ولكن في لحظة تاريخية فارقة عرف لحظات انغلاق وتقوقع ونكوص.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، الإصلاح، النهضة، التقدم، الحدثة.

Abstract: This study aimed to identify the historical context in which the Arab Renaissance discourse emerged. The question was: How do we progress? This research focused on the Arab reform discourse, revealing the frame of reference and intellectual framework of reform leaders in the Arab world at the end of the nineteenth century and the beginning of the twentieth century.

The study concluded that the Arab reform discourse, at its initial formation, was open to the times, accepting of modernity, admiring and discovering the modern state, and drawing without hesitation from the wellspring of modern political philosophy. It was a discourse driven by an obsession with renaissance and progress. However, this discourse experienced a decline, regression, and a return to the Middle Ages, as the Islamic revivalist discourse took shape. The question was: How do we protect the self and preserve identity? Thus, the Arab reformist discourse, which broke with the concepts of the Middle Ages, experienced a moment of openness and reconciliation with the era and with modernity at the beginning of its formation, but it experienced moments of closure and isolation.

Keywords: discourse ; reform ; renaissance; progress ; modernity.

مقدمة:

لا يختلف اثنان بأن صياغة وتبلور الخطاب النهضوي العربي الحديث وما أنتجه على المستوى السياسي والاجتماعي، قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالواقع التاريخي والسياسي وبعبارة أخرى عكس هذا الخطاب تحديات اللحاق بالركب الحضاري ومشكلات التخلف وهواجس التأخر التاريخي. كما عبر هذا الخطاب عن الضربات المتتالية وضغوطات الغرب الاستعماري التي كان يتعرض لها العالم العربي/الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (اللطيف، 1982، صفحة 23).

ولهذا و بالنظر إلى هذه الضغوطات الخارجية والتحديات الداخلية تشكلت الملامح الكبرى لخطاب النهضة العربية بقسميه الرئيسيين الليبرالي والإصلاحي- السلفي، كانت المهام المنوطة بزعماء الإصلاح صعبة و شاقة و هي تقديم مشروع نظري - فكري للإصلاح السياسي وللهوض الاجتماعي، مشروع يقوم على تحديد الأسباب الرئيسية للتأخر التاريخي الذي تعاني منه المجتمعات العربية/الإسلامية وكذلك تقديم رؤية تتجاوز هذا الانحطاط الحضاري وإنتاج إطار نظري يضع حداً لهذا التراجع الخطير والتخلف البنيوي المزمن.

وبالتالي ما كان يثير قلق مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، هو هذا التأخر التاريخي مقارنة بالماضي الحضاري العربي/الإسلامي في العصر الوسيط وكذلك هذا التخلف متعدد الأبعاد، بالنظر إلى الحاضر الأوروبي الذي يتميز بقوة الدولة الحديثة وتطور النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمجتمعات الغربية التي بلغت القمة في سلم الحضارة والحداثة.

والحقيقة أن رواد النهضة العربية قد أدركوا ووعوا منذ الصدمة التي أحدثتها حملة نابليون بونابرت على مصر عام 1798، أن هناك فرق حضاري بين الشرق والغرب، بين الإسلام وأوروبا كما أدركوا في نفس الوقت أن واقع المجتمعات العربية/الإسلامية في الحاضر متخلف عن واقع هذه المجتمعات في الماضي عندما بلغت الحضارة العربية/الإسلامية القمة في العصر العباسي في بغداد وفي الأندلس في قرطبة.

و من هنا كان من الضروري على الفكر العربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن يصوغ خطابا كلماته المفتاحية هي: النهضة، التمدن الترقى، اليقظة والتقدم. ورغم اللغة التراثية والأسلوب القديم وبعض العبارات السلفية المستخدمة في هذا النص أو ذاك، إلا أن هذا الخطاب كان لا يرى مانعا من التأقلم مع العصر ومن الانفتاح على العالم ومن الإقبال على علوم العصر و الأخذ من ثقافة الحداثة والغرف من معين فلسفة الأنوار، خطاب يقوم على ثلاث قواعد هي:

القاعدة الأولى: أنه لا تعارض بين رسالة الإسلام الحضارية والتمدن الأوروبي. القاعدة الثانية: أن مبادئ الفلسفة السياسية الليبرالية مثل الحرية والعدل والمساواة والوطنية، هي نفسها المبادئ التي كان يدعو إليها الفكر السياسي الإسلامي الكلاسيكي فكر الآداب السلطانية والفقه السياسي والسياسة الشرعية.

القاعدة الثالثة: بعض مفاهيم ومصطلحات المنظومة السياسية الغربية هناك ما يقابلها في القاموس السياسي العربي/الإسلامي، فالمنافع هي المصالح والشورى هي الديمقراطيةون أهل الحل والعقد هم البرلمان والسلطان وحاشيته ووزراؤه هم الطبقة السياسية.

وغني عن البيان القول أن الخطاب ومهما كان نوعه، له مرجعيته الفكرية ويحمل بداخله توجهه الإيديولوجي، فلا يوجد خطاب بدون مرجعية فكرية وبدون إيديولوجية سياسية واضحة. لذلك نسعى للقبض على المرجعية الفكرية التي يستند إليها خطاب مفكري الإسلام من جهة والكشف عن التحولات الفكرية التي عرفها خطابهم في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين من جهة أخرى .

والحقيقة التي لا مراء فيها، أن الخطاب السياسي النهضوي العربي تبلور بشكل واضح في النصف الأول من القرن التاسع عشر في مصر عندما أصدر رفاة رافع الطهطاوي كتابه "تلخيص الإبريز في تخلص باريس" و في تونس عندما نشر خير الدين التونسي كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" و في لبنان عندما كتب بطرس البستاني سلسلة مقالات في جريدة سماها "نفير سوريا". ولا ننسى أن هؤلاء المثقفون قدموا خطابا نهضويا برؤية

يغلب عليها الطابع الليبرالي، بالتوازي مع مشروع الإصلاح والتحديث الذي باشرته الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر فيما يسمى بالتنظيمات من جهة، وما قام به حاكم مصر محمد علي باشا وواصله أبناؤه من أعمال وإنجازات، فيما يخص بناء الجيش وإنشاء اقتصاد عصري وتطوير التعليم. الخ وما فعله بايات تونس من إصلاحات سياسية وإدارية فيما يخص بناء الدولة الوطنية الحديثة من جهة أخرى.

ولسنا في حاجة إلى شرح كبير للقول بأن من عباءة الخطاب السياسي النهضوي خرج خطاب الإصلاحية العربية في نهاية القرن التاسع عشر، الذي تميز بالانفتاح على العصر وتقبل الحداثة والإعجاب بالدولة الحديثة والنهل من معين الفلسفة السياسية الأوروبية و خاصة فلسفة القرن الثامن عشر الأنوارية .

ومن الضروري فهم السياق التاريخي الذي تشكل فيه الخطاب النهضوي و معرفة دوافع الفكرية والنفسية والكشف عن الأسباب التي كانت تقف وراء انفتاح ومرونة واعتدال خطاب الإصلاحية وكذلك البحث في العوائق التي منعت تطوره نحو مزيد من الوعي والعقلانية والزرعة النقدية وممارسة التنوير وبالتالي نشوء خطاب الإحيائية الذي قطع مع إصلاحية نهاية القرن التاسع عشر .

الإشكالية: ومن هنا كانت الإشكالية المطروحة في هذا البحث تتأسس على ثلاث أسئلة مترابطة هي : كيف كانت الظرفية التاريخية التي نشأ وتكون فيها خطاب الإصلاحية العربية، ولماذا كان خطاب زعماء الإصلاح في البداية انفتاحي متصالحا مع الحداثة ومعجبا بالدولة الحديثة؟ ولماذا تراجع هذا الخطاب وعرف تراجعاً وتعرض لحالة نكوص في عشرينيات القرن العشرين؟

المنهج: وقد اتبعنا في هذه الدراسة خطوات المنهج التاريخي وكذلك مع استخدام المنهج التحليلي/النقدي كما وظفنا في جميع مفاصل البحث ما تيسر لنا من مفاهيم ومناهج الفلسفة والعلوم الإنسانية، وذلك لفهم آليات ومحددات خطاب الإصلاحية العربية.

ولذا فمَسَّار التحليل في هذه الدراسة يسير في اتجاه البحث والتنقيب في التاريخ وقراءة وتحليل الخطاب.

الفرضية : وتنطلق هذه الدراسة من فرضية أن خطاب الإصلاحية العربية هو نتاج الظرفية التاريخية، ظرفية الهيمنة الإستعمارية والتأخر التاريخي.

هذه الظرفية هي التي حددت الخطوط العريضة للخطاب ووجهته نحو جعل المسألة السياسية، مسألة مركزية، كما أن سياق الضغط الإمبريالي في الخارج والتخلف البنيوي في الداخل هي التي رسمت الملامح الكبرى لدعوات الإصلاح وطموحات النهوض.

1. الإيديولوجيا و التاريخ

1.1 مركزية المسألة السياسية

لسنا في حاجة إلى شرح كبير للقول، بأن الفكر النهضوي العربي الحديث فكر القرن التاسع عشر هو فكر كان شغله الشاغل هو النهضة من جهة والسياسة من جهة أخرى. لذا لا نندهش من أن تكون المسألة السياسية مسألة مركزية فيه، وشواهد الإثبات على ذلك كثيرة، منها أن فكر النهضويين لا يتوانى في استخدام وترديد وتوظيف مقولات ومصطلحات ومفاهيم الفكر السياسي القديمة والحديثة على حد سواء هنا كثرة تردد كلمة السياسة، وكل ما يشتق من فعل ساس و يسوس في نصوص وكتابات النهضويين العرب .

ولهذا لا نستغرب من هذا الكم الهائل من المفاهيم والمصطلحات السياسية التي نجدها في نصوص رفاة الطهطاوي و خير الدين التونسي ومحمد عبد و عبد الرحمن الكواكب من قبيل الدولة و السلطة و الحكم و الدستور.

وعلى هذا الأساس يمكننا الجزم بأن الفكر العربي الحديث، فكر يَنْظُرُ إلى العالم من منظور سياسي، إنه خطاب يُحلّل بالسياسة و يُفسّر بالسياسة و يُناقش كل القضايا من زاوية سياسية، بم في ذلك قضايا قد تبدو بعيدة عن السياسة من قبيل قضايا الأخلاق و التربية والشرعية و الثقافة وحتى قضايا المرأة، وبعبارة أدق الخطاب السياسي النهضوي العربي الحديث كانت تدور موضوعاته ونقاشاته على محور الدولة والسلطة والحكم و الدستور،

ولذلك كل المشكلات و القضايا الأخرى ،الاقتصادية، الاجتماعية و الثقافية التي يتخبط فيها العالم العربي والتحديات التي تواجه المسلمين يرجعها إلى نظام الحكم وطبيعة الدولة السلطانية وشكل السلطة السياسية الحاكمة (بلقزيز، 2000، صفحة 47). ومن هنا نفهم مركزية القضايا السياسية وما يرتبط بها من مفاهيم من قبيل الدستور والديمقراطية والاستبداد عند المفكرين النهضويين ودعواتهم الملحة بضرورة الإصلاح السياسي.

و من المؤكد أن دعاة الإصلاح في العالم العربي و خاصة في مصر و الهلال الخصيب ،قد اقتنعوا بحتمية الحداثة والتحديث ،بعد أن شاهدوا بأعينهم عندما سافروا إلى أوروبا قوة الدولة الحديثة، وجيشها النظامي و مؤسساتها السياسية، كما لاحظوا هناك في فرنسا و إنكلترا وعن كثب المجتمع الحديث و تعرفوا على المجتمع المدني الذي يرتبط ارتباطا قويا بالدولة الحديثة، الدولة – الأمة، كما اكتشفوا في نفس الوقت، ترهل و تفكك نظام الحكم السلطاني/الساساني الذي تأسس في التاريخ العربي/ الإسلامي منذ قيام الدولة الأموية عام 661 م. كما اقتنعوا أن تكلس المؤسسة السياسية الحاكمة و عدم تطورها منذ قرون، هما علة هذا التأخر التاريخي وهما من أسباب نزول هذا الانحطاط الاجتماعي/الثقافي الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ العربي/الإسلامي.

وبعبارة صريحة عندما شَخَّص المفكرون النهضويون العرب مرض المجتمعات العربية /الإسلامية، بالمقارنة بالنظام السياسي الأوروبي الحديث الذي عاينوه هناك في أوروبا عندما سافروا و عاشوا ردحا من الزمن في باريس ولندن وجنيف، فقد سافر رفاعة الطهطاوي الى فرنسا و عاش هناك لمدة أربع سنوات و سافر خير الدين التونسي الى عدة دول أوروبية و قام الشيخ محمد عبده برحلة الى فرنسا، اكتشفوا أن المرض في المؤسسة السياسية بالدرجة الأولى، لذا فهو يتطلب علاجاً سياسياً يتمثل في وصفة اسمها الإصلاح السياسي ،إصلاح الدولة العربية /الإسلامية دولة السلطان و إصلاح نظام الحكم، و لا يتم ذلك إلا بإقرار آليات نظام

الشورى المُلزم، و بالتالي لا بد من وضع الدستور العصري والليبرالي الذي يقيد السلطات ويطلق الحريات .

ولهذا كانت قضايا الحرية والدستور والعدل هي من المطالب الأولى عند جميع " زعماء الإصلاح "، وهي في نظرهم تعتبر من أولى الأولويات، بل هي مدماك الإصلاح والنهضة والتقدم.

ومن هنا نفهم أن الإصلاح السياسي في الخطاب النهضوي مقدم على الإصلاح الاجتماعي والإصلاح الثقافي (أومليل، 1985، صفحة 6)، وبعبارة أخرى الاستبداد هو المرض الحقيقي والمشكلات الاجتماعية والثقافية هي مجرد أعراض لهذا المرض العضال. وما يلاحظ على الخطاب السياسي النهضوي ذلك الربط الماهوي بين مطالب الإصلاح والتجديد والتحديث من جهة وضرورات إصلاح الدولة ونظام الحكم والإصرار على طرح المسألة الدستورية من جهة أخرى (أومليل، 1985، صفحة 6).

1.2 اكتشاف الدولة الحديثة

وكما أشرنا سابقا أن الخطاب العربي النهضوي الحديث هو خطاب سياسي بامتياز، كلام في السياسة وبالسياسة وعن السياسة، إنه خطاب شغوف بتوظيف واستعمال الكثير من الكلمات والأشياء ذات الصلة بمفاهيم السلطة والحكم والعدل والحرية، سواء تلك التي صاغها الفكر السياسي الإسلامي الوسيط أو تلك المقتبسة من أدبيات السياسة الأوروبية الحديثة، من قبيل الملك الدولة، الحكم، السلطة، الاستبداد الدستور، التمثيل النيابي الحزب السياسي، المواطنة، الشورى والديمقراطيون غيرها من المفاهيم التي يعج بها قاموس الخطاب السياسي النهضوي العربي الحديث .

وعلى هذه الأرضية، ناقش مفكرو النهضة العربية القضايا التي كانت مطروحة عليهم وأجابوا عن الأسئلة التي كان يطرحها عليهم الضغط الإمبريالي قضايا الاستعمار والاستبداد والهيمنة والتخلف الاجتماعي والثقافي و قضايا نظام الحكم والسلطة والشورى والأمور المتعلقة بالقانون والمجتمع المدني وحتى قضايا الدين وكما أكتشف الفكر النهضوي الدولة

الحديثة، اكتشف كذلك الإسلام رغم أنه لم يتطرق إلى مشكلة الخلافة و لا كان يفكر في ما يسمى اليوم بالدولة الإسلامية (بلقزيز، 2000، صفحة 47).

ومن هنا نفهم مركزية القضايا السياسية وما يرتبط بها من مفاهيم من قبيل الدستور والديمقراطية والاستبداد عند المفكرين النهضويين واهتمامهم الشديد بضرورة الإصلاح السياسي قبل الإصلاح الاجتماعي وحتى الثقافي.

ومن المؤكد أن دعاة الإصلاح في العالم العربي وخاصة في مصر والهلل الخصيب، قد اقتنعوا بضرورة الانخراط في الحداثة وبحتمية التحديث، بعد أن سافروا إلى أوروبا، وشاهدوا هناك قوة مؤسسات الدولة، بجيشها النظامي ومؤسساتها السياسية كما لاحظوا هناك في فرنسا و انكلترا و عن كثب المجتمع الحديث و تعرفوا على المجتمع المدني الذي يرتبط ارتباطا قويا بالدولة الحديثة، الدولة - الأم، كما اكتشفوا في نفس الوقت، ترهل و تفكك نظام الحكم السلطاني/الساساني الذي تأسس في التاريخ العربي/الإسلامي منذ قيام الدولة الأموية عام 661 م. كما اقتنعوا أن تكلس مؤسسة السياسية الحاكمة و عدم تطورها منذ قرون، هما علة هذا التأخر التاريخي و هما من أسباب نزول هذا الانحطاط الاجتماعي/الثقافي الذي لم يسبق له مثيل في التاريخ العربي/الإسلامي.

وبعبارة صريحة عندما شَخَّص المفكرون النهضويون العرب مرض المجتمعات العربية الإسلامية، بالمقارنة بالنظام السياسي الأوروبي الحديث الذي عاينوه هناك في أوروبا، عندما سافروا و عاشوا ردحا من الزمن في باريس و لندن و جنيف، فقد سافر رفاعة رافع الطهطاوي الى فرنسا و عاش هناك لمدة أربع سنوات و سافر خير الدين التونسي الى عدة دول أوروبية و سافر الشيخ محمد عبده الى فرنسا، اكتشفوا أن المرض سياسي بالدرجة الأولى، يتطلب علاجاً سياسياً يتمثل في وصفة اسمها الإصلاح السياسي، إصلاح الدولة السلطانية و إصلاح نظام الحكم، ولا يتم ذلك إلا بإقرار آليات نظام الشورى المُلزم، وبالتالي لا بد من وضع الدستور الذي يقيد السلطات و يطلق الحريات.

من هذا المنظور تبنى مفكرو الإسلام في العالم العربي الحديث، في خطابهم الإصلاحي و بأجيالهم المتتالية ، من الجيل الأول الذي يمثله كل من رفاعه رافع الطهطاوي (1801- 1873) في مصر و خير الدين التونسي (1801- 1873) في تونس و بطرس البستاني (1801- 1873) في لبنان، إلى الجيل الثاني الذي يتجسد في ثلة من المفكرين و الكتاب و الأدباء الذين نبه ذكرهم في نهاية الهزيع الأخير من القرن التاسع عشر ، أديب إسحاق() و فرح أنطون (1874- 1922) وشبلي شميل (1850- 1917) و محمد عبده (1849- 1905) و عبد الرحمن الكواكبي(1855- 1902) وقاسم أمين(1863- 1908)، وبتصوراتهم الإيديولوجية المتعددة والمتنوعة والتي تتمثل خاصة في تيارين يختلفان إيديولوجيا ، التيار الليبرالي و التيار الإصلاحي، أقول تبنى هؤلاء المفكرون خارطة الطريق الليبرالية ، خاصة أولئك الذين تعلقوا بالأفكار السياسية الأوروبية و أعجبوا بمفاهيم الفلسفة السياسية الحديثة و بالأخص فلسفة العقل والأنوار، وتبنوا منذ البداية مبادئ الليبرالية و لم يترددوا في المطالبة باقتباس مؤسسات الدولة الحديثة والأخذ بالنظم السياسية الديمقراطية.

2.الضغط الاستعماري والتخلف التاريخي

1.1.الضرورة في الإصلاح السياسي

و لا يجب أن ننهي، من تحديد عوامل ظهور التيار الإصلاحي في الفكر العربي الحديث، دون أن نشير إلى عامل ي مهم هو الاستبداد السياسي الجاثم على صدر الأمة منذ قرون، واشتد في العصر الحديث مع الخلفاء العثمانيين المتأخرين و مع الأمراء والسلطين في الولايات العربية الذين كانوا خاضعين للخلافة العثمانية بشكل أو بآخر، و لا ننسى أن هؤلاء الحكام مارس هؤلاء الحكام صنوفاً شتى من القمع و التسلط .

والحقيقة التي يتفق عليها الجميع، من باحثين و مؤرخين للفكر العربي الحديث، أن فكر الإصلاح ربط التأخر والانحطاط بطبيعة المؤسسة السياسية المُستبدّة التي تحكم العرب والمسلمين منذ قرون. وبالتالي لم يتأخر مفكرو النهضة العربية كثيراً في توجيه أصابع الاتهام للاستبداد السياسي بحسابه "علة العلل" في كل ما حدث للمجتمعات العربية الإسلامية في

تلك الحقبة (بلقزيز ع.، الخطاب السياسي النهضوي العربي، 1989) من كوارث وهزائم ونكسات ونكبات، والحل يتمثل في نظرهم في الإصلاح السياسي الذي يأخذ بنظام الشورى ومبادئ الدستور (أومليل، 1985، صفحة 6).

ومن هنا ، فخطاب الإصلاحية العربية تبلور في سياق تاريخي شديد الوطأة وساهمت في صياغته عوامل كثيرة شديدة التعقيد، وأجاب عن الأسئلة التي طرحها عليه الآخر الاستعماري الذي يسعى بكل الطرق للهيمنة والسيطرة السياسية والاقتصادية وحتى الثقافية حيث يريد فرض نموذج الحضاري والقيمي، انطلاقاً من إيدولوجية المركزية الأوروبية /الغربية (الأخضر، 2024، صفحة 541). وتشكلت أفكار ومفاهيم خطاب الإصلاحية بصورة واضحة في نهاية القرن التاسع عشر ، كما عرف في سيره مسارات مختلفة. تباينت فيها المواقف و المفاهيم، فإصلاحية جمال الدين الأفغاني الثورية هي غير إصلاحية الشيخ محمد عبده التربوية و هذه الأخيرة هي غير إصلاحية محمد رشيد رضا (1865-1935) الإحيائية، كما أن منحنيات العقلانية والتنوير في هذه الإصلاحية كانت في هبوط و تراجع من فترة زمنية إلى أخرى . والحقيقة أن أبرز ما يميز حركة الإصلاحية، جدلية الانفتاح والانكفاء، فقد عرفت هذه الحركة على مستوى الخطاب و في كل مرحلة تراجعاً عن المرحلة التي سبقتها. ففي البداية كان خطاب الإصلاحية يَتَمَيَّز بقدر كبير من المرونة والاعتدال والتسامح والاجتهاد كما كانت آلية إعمال العقل جارية على قدم وساق مع قضايا التاريخ والمجتمع والدولة والدين، ثم فجأة وبدون مقدمات عرف تراجعاً إلى الوراء وتعرض لحالة نكوص.

والحقيقة أن العامل الرئيس في انفتاح خطاب رواد النهضة العربية هو أنهم كانوا على إطلاع واسع بالتراث العربي /الإسلامي، وعلى معرفة واسعة بالفقه والفلسفة والتصوف وعلم الكلام واللغة من ناحية. كما كانوا على دراية بكثير من قضايا الفكر الغربي الحديث والفلسفة الأوروبية والفلسفة السياسية.

ولهذا طعموا الفكر الإسلامي بعدد من المفاهيم الحديثة المأخوذة والمقتبسة من الفكر الأوروبي، كما كانوا على درجة عالية من الاستعداد للدخول في حوار مع مواقف الحداثة

الغربية و مع النهل من مفاهيم الفلسفة السياسية و الرد على الساسة الأوروبيين و مناقشة طروحات الاستشراق (بلقزيز ع.، 2000، صفحة 64) .

و هكذا نجد محمد عبده يتحاور مع فرح أنطون (1847-1922) في المناظرة الشهيرة بينهما على صفحات مجلة " الجامعة " حول موضوع العلمانية في الإسلام. كما أن جمال الدين الأفغاني (1839-1897) دخل في نقاش مع الفيلسوف الفرنسي أرنت رينان (1828-1892) الذي ادعى في محاضرة له ، ألقاها بجامعة السوربون عام 1883 "أن حال الجمود الذي عليه المسلمون لا يتأتى لهم إلا بسبب طبيعة ديانتهم الإسلام ، الأمر الذي يظهرهم بمظهر التعصب ضد الأديان الأخرى ، وينبئ عن أن الدين الإسلامي سينتهي لا محالة ، فالأديان عموماً ليست الوسيلة للتّمدّن و إنما وسيلة التمدن ا أساسية في العصر الحديث هو العلم ، و مع ذلك فالتمدن ليس ضد الأديان كلية ، و إنما هو يعارض التعصب الذي تمارسه غالباً و على الأديان إن أرادت أن تعيش ، أن تسالم و تلين ، وإلّا كان موتها.." (حفي، 1999، صفحة 1251).

مجلة "الجامعة" مقتطفات منه، فرّد عليه جمال الدين الأفغاني ردّاً فيه كثير من العمق و الرصانة والهدوء. مؤكداً أن الإسلام لا يتعارض مع العلم ، كما ردّ عليه الشيخ محمد عبده ، مذكراً إياه أن التعصب عمل سياسي و ليس ديني و أن الجمود علة عارضة و ليست دائمة عند المسلمين (حفي، 1999، صفحة 1253).

وغني عن البيان القول أن خطاب الإصلاحية في نهاية القرن التاسع عشر، كان على قدر كبير من التفتح على العلوم و على استعداد للدخول في نادي الحداثة و لم تكن لهم مشكلة للتسامح مع الآخر و الانفتاح على العالم و العصر، كما كان رواد الإصلاح في عصر النهضة العربية على استعداد للحوار الهادئ مع الآخر، مهما كان هذا الآخر، بالرغم من ظرفية الاستعمار والهيمنة الإمبريالية، لأن السؤال/الهاجس الذي كان يحركهم هو: كيف نهض ونلحق بالركب الحضاري ؟

و قد جاء جوابهم على هذا السؤال المركزي في نصوصهم الفكرية كما يلي : نتقدم بالعلم والمعرفة و الفكر الحر والحوار والتربية والأخذ، و لا حرج في الأخذ والتعلم من الآخر والاقتراس من الأوروبيين و الأهم من ذلك ضرورة التفكير و الإجهاد و إعمال العقل .

2.2 هاجس اللحاق بالركب

و ما يلاحظ على خطاب الإصلاحية العربية، أنه توقف في منتصف الطريق على يد الشيخ محمد رشيد رضا، إذ تغيرت صيغة السؤال من :كيف نتقدم ؟ الى صيغة أخرى هي : كيف ننكفئ على الذات ؟

و من نافلة القول إن خطاب الإصلاحية العربية، هي تيار فكري /سياسي واسع، احتوى على نزعات مختلفة، فقد كان هناك الإصلاحي الثوري الذي يريد حرق كافة المراحل و إلى جانبه يقف السلفي المعتدل الذي يبغى السير خطوة خطوة. ويضم هذا التيار الواسع كذلك، الإصلاحي المُجَدِّد الذي يزاحمه ويعارضه المحافظ السلفي الراديكالي الخائف على الهوية، فالمجال النهضوي كان يتسع للجميع.

ومما لا شك فيه أن المسألة السياسية، كانت هي المسألة الطاغية على الفكر النهضوي، فالإصلاحية العربية هي كذلك، كان شغلها الشاغل الإصلاح السياسي. ولهذا كانت لها عين على الدولة والعين الأخرى على الدين، ومن هنا كانت إشكالية الدولة والدين في الفكر العربي الحديث والمعاصر.

وما يلفت الانتباه، أن هذه الإصلاحية أغنت الخطاب السياسي العربي، بحزمة من المفاهيم، سواء مفاهيم تراثية مثل الشورى، الأمة، الجماعة، الخلافة، الولاية، العقد والبيعة، أو مفاهيم غربية معاصرة ، تسربت إلى الساحة الثقافية/السياسية العربية ، شيئاً فشيئاً مثل الدولة ، الحكومة البرلمان، الانتخابات، الديمقراطية والدستور (بلقزيز ع.، الخطاب السياسي النهضوي العربي، 1989، صفحة 9).

صحيح أن الإصلاحية العربية لم تنتج فكراً سياسياً متماسكاً ولا قدمت لنا نظرية سياسية، رغم أن المسألة السياسية، كانت هَمّاً أَرْقَ بال الإصلاحيين العرب، لكنها اقترحت حلولاً

ومارست التنوير ونهت إلى خطورة الاستعمار وانتقدت الاستبداد و رأت أن الحل في العدل السياسي.

والجدير بالذكر أن ما يميز زعماء الإصلاح في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أنهم سافروا إلى أوروبا واكتشفوا هناك الدولة الحديثة والمجتمع الحديث وعانوا عن قرب الحداثة السياسية والتطور الاجتماعي.

وفي هذا السياق يرى بعض الباحثين أن السفر إلى أوروبا هي التي دفعت مفكرو الإسلام دفعا نحو الإعجاب بالنموذج الحضاري الأوروبي والانهار بالحداثة الغربية، وبالتالي لم تترك مشاهدة أوروبا على المباشر الوقت الكافي للتفكير والتردد أو حتى التساؤل للإصلاحيين عن هذا التطور الباهر والتقدم غير المسبوق و خاصة الذين مكثوا و عاشوا هناك مدة من الزمن، والعيش وسط المجتمعات الغربية، فمشاهدة دولة ومجتمع حديث عن قرب هي التي أفرزت صدمة الحداثة و الوعي بالفارق في نفس الوقت ووسعت مدارك الإصلاحيين وكشفت لهم "...عن ظواهر و أبعاد فيه لم يكن في الوسع اكتشافها خارج موطن أوروبا خففت من غلواء النقد الإصلاحي للنظام الاجتماعي والثقافي والسياسي فيها، فضلاً عن أن هذه المعايينة مكنت من تظهير الجوانب الإيجابية من نموذج التنظيم السياسي والاجتماعي إلى الحد الذي دفع درجة الإغراء و الجاذبية فيه إلى المستوى الذي يبرر الاقتباس بل و الاقتداء منه.." (بلقزيز ع،، أزمة الفكر السياسي العربي، 2000، صفحة 55)

والحقيقة أن أبرز مفكر إصلاحي سافر إلى أوروبا وشاهد بأم عينه الحداثة السياسية والتقدم الاجتماعي، هو الشيخ محمد عبده الذي تميز بقدر كبير من المرونة وحسن التكيف مع روح العصر. ومن هنا كان هاجس التجديد و الإصلاح طاغياً على فكر هذا الشيخ السلفي المتنور الذي بوفاته انتهت مرحلة الإصلاحية الأولى، و في العشرينيات من القرن العشرين بدأت مرحلة السلفية المتشددة و عرف خطاب الإصلاحية العربية تراجعاً إلى الوراء و نكوصاً مع محمد رشيد رضا صاحب مجلة "المنار" الذي انقلب على أستاذه الشيخ محمد عبده، و

بقي متمسكاً بنظام الخلافة الإسلامية حتى آخر يوم في حياته رغم سقوط هذا النظام رسمياً عام 1924 على يد مصطفى كمال .

والحقيقة أن هذا الشيخ الذي كما قلنا بدأ إصلاحيا وانتهى سلفياً، رافضاً تماماً مفهوم الدولة الحديثة ومقاطعاً مقاطعة تامة مفاهيم ومصطلحات الحداثة السياسية، مثل مفهوم الدولة القومية، المواطنة، الانتخابات والجنسية. و في الوقت الذي كان فيه رشيد رضا ، يرفض ويقاطع مفاهيم الفكر السياسي الحديث، كان يستدعي مفاهيم و مصطلحات الفقه السياسي السني والسياسة الشرعية والأحكام السلطانية، علماً أن الشيخ محمد رشيد رضا كان من أبرز إصلاحي النهضة الفكرية فقد كان كما قلنا إصلاحيا متفتحاً على العصر و منفتحاً على الفكر الأوروبي الحديث (رضا، 1992، صفحة 65) .

وبذلك يكون هذا الشيخ السلفي، هو أول من دشن خطاباً الإسلام السياسي، عندما قام بانقلاب فكري سيكون بمثابة بداية النهاية للخطاب السياسي الإصلاحيون من المعروف أن خطاب الإصلاحية كان قد قطع مع كل ما يتعلق بالفقه السياسي ومع الآداب السلطانية والسياسة الشرعية .

والحقيقة التي لا نقاش فيها أن كبوة رشيد رضا الفكرية هي التي مهدت الطريق لصعود خطاب سياسي جديد، كان بمثابة ردة ثقافية، ردة على التراث النهضوي ارتد عن مُجْمَل التراث النهضوي في المسألة السياسية و كان مرجعاً له، هو الخطاب الصحوي الإسلامي خطاب المصالحة الفكرية المتجددة مع منظومة السياسة الشرعية .." (بلقزيز ع،، أزمة الفكر السياسي العربي، 2000، صفحة 68)

3. ميلاد خطاب الإحيائية

1.3 الإصلاحية وصراع الأضداد

و بالفعل فإنه من العبء الفكرية لرشيد رضا، سوف يخرج خطاب الإحيائية و بتعبير أدق خطاب الإسلام السياسي الذي دسّنه تلميذه حسن البنا (1906-1949) الذي ينهل مفاهيمه مباشرة من المنظومة التراثية السنية المحافظة ممثلة بابن تيمية (1262-1327) وابن قيم

الجوزية (1292-1356) و هكذا عَمَّق الإخوان المسلمون القطيعة مع سيد قطب (1906-1966) من خلال مفهوم الحاكمية في كتابه الشهير "معالم في الطريق" و مع محمد قطب عن طريق مفهوم إسلامي آخر هو مفهوم الجاهلية في كتابه "جاهلية القرن العشرين" و كذلك محمد عبد السلام فرج في كتابه "

ولا يتوقف الأمر، عند هذا الحد بل سيزداد هذا الفكر تراجعاً و نكوصاً مع مرور الوقت، والدليل على ذلك أزمة الفكر السياسي الإسلامي المعاصر و عجزه عن التأقلم أمام جرافة العصر و عدم صموده في وجه تيار الحداثة الدافق.

نستنتج، أن هناك فرق بين خطابات كل من الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي، التي كانت مُعجبة بالدولة الحديثة وبالنظم السياسية التي تحقق الحرية والعدل، وخطابات محمد رشيد رضا حسن البناء وسيد قطب التي ما هضمت مفهوم الدولة الوطنية الحديثة، بل ودعت في المرحلة الأولى إلى عودة دولة الخلافة وبأي صيغة وبأي شكل، ثم طالبت بقيام الدولة الإسلامية.

وبالتالي، فإن خطاب الإحيائية بقدر ما يرفض مفاهيم الفلسفة السياسية ومقولات الحداثة السياسية، المفاهيم والمقولات التي جاء بها كل من نيكولا مكيافلي، طوماس هوبس، وباروخ سبينوزا، جون لوك و منتسكيو وجان جاك روسو. بقدر ما تُقْبِل على إحياء مفاهيم السياسية الشرعية والفقهاء السياسي مع أبي حامد الغزالي، وعبد الحليم ابن تيمية وابن قيم الجوزية. و في نفس الوقت الذي ترفض فيه تحليلات وتنظيرات كارل ماركس و آدم سميث وماكس فيبر، فإنها تعيد الحياة إلى حكم ومواعظ وإرشادات الآداب السلطانية مع عبد الله ابن المقفع، عبد الحميد الكاتب والطرطوشي .

وهكذا انتهى خطاب الإصلاحية العربية كفكر سياسي إلى أزمة يبدو الخروج منها صعباً إن لم نقل مستحيل، أزمة مع العصر وأزمة مع الدولة الوطنية و أزمة مع العالم (زيد، 1994، صفحة 85).

ولا شك، أن هناك أسباب تاريخية وموضوعية (amin, 1976, p. 31) وبعبارة أخرى هناك أسباب نزول ساهمت في الوصول إلى هذه الأزمة الفكرية. من بينها ضغوطات الاستعمار الأوروبي وقيام دولة إسرائيل بدعم وحماية من الامبريالية البريطانية والأمريكية. بالإضافة إلى الفشل الذريع لدولة ما بعد الاستقلال و خاصة دولة العسكر في الخمسينيات والستينيات التي لم تكتف بالبطش والقمع والتنكيل بالمعارضين، بل إنها قامت بابتلاع المجتمع المدني وتغيب الشعوب، واحتكار السلطة و المجال العام، وتجريف الحياة السياسية وتهجير الكفاءات والنخب العلمية والفكرية، مما أدى إلى تراكم الهزائم والنكبات والنكسات و الفشل الذريع في التنمية .

وكان من الطبيعي، أن دولة ما بعد الاستقلال التي عجزت في الدخول الى نادي الحداثة ، يستحيل عليها حل مشاكل المجتمع التاريخية، ومع تراكم الأزمات و كثرة الإحباطات ، تزداد هذه الدولة عنفاً و في ظل غياب المؤسسات السياسية الديمقراطية وغياب المجتمع المدني وبالتالي غياب الحريات الفردية و الجماعية، مع الممارسة غير المشروعة للعنف من قبل الدولة ضد الأفراد و الجماعات يكون الناتج الطبيعي لكل هذه الأوضاع اللأديمقراطية، هو فكر ديني متطرف، وبعبارة أخرى إيديولوجية دينية متطرفة، تمارس العنف ضد الجميع، الدولة والمجتمع .

وهكذا حَلَّت الإحيائية محل الإصلاحية. وأصبح صوت الإصلاح والتجديد خافتاً مقارنة بالصوت المدوي لجماعات الإسلام الحزبي.

2.2 نهاية خطاب الإصلاح

و الحقيقة التي لا نقاش فيها أن التَشَدُّد و التطرف والغلو لم يتركوا أية فرصة، للإصلاح الفكر و لتجديد الخطاب الدين و لتجديد الفكر السياسي .فعلى سبيل المثال، عندما أصدر الشيخ على عبد الرزاق كتابه الشهير "الإسلام و أصول الحكم" عام 1925 ، تعرض لهجوم عنيف من طرف المؤسسة الدينية ممثلة في جامع الأزهر، و حُكِم عليه بالفصل من وظيفته مع مصادرة الكتاب، و عاش في شبه عزله تامة حتى وفاته عام 1966 فقط لأنه صرح في هذا

الكتاب بضرورة الاحتكام في مجال السياسة إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة . كما أكد أن الخلافة منصب دنيوي وليس ديني (الرازق، 1988، صفحة 66) وبعبارة أفصح الحكم في الإسلام قد يكون خلافة وقد يكون إمارة، وقد يكون جمهورية. وهذا ما فعله الجنرال مصطفى كمال عندما أعلن قيام الجمهورية وتأسيس الدولة الوطنية التركية على أنقاض الخلافة العثمانية.

ومن هنا، فنظام الحكم في الإسلام، لا يتقيّد بنموذج معين ولا بقالب محدد، بل إنه يدخل في باب "أنتم أدرى بشؤون دنياكم" وهذه الفكرة البسيطة، يكون هذا الشيخ الأزهرى وخريج جامعة السوربون قد فتّح خطأ جديداً داخل الإصلاحية العربية، وهو خط نستطيع أن نسميه بتحفظ "الإصلاحية/ الليبرالية"، الذي سوف يستمر - ولو بصوت خافت - مع طه حسين وأحمد لطفي السيد و مصطفى عبد الرازق و أمين الحولي و عبد الحميد بن باديس .

وفي اتجاه آخر، ساهمت الأحداث السياسية والتحولت الفكرية المتلاحقة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، والتي تميزت بظهور خطاب يقاوم الاستعمار ويرفض التبعية ويسعى نحو الاستقلال لكنه يعادي الحداثة ويرفض الحضارة الغربية ويطالب بالعودة الى صدر الإسلام وتطبيق الشريعة ومع قيام الدولة الوطنية، أصبح هذا الخطاب أكثر راديكالية ومن هناك كان لا مفر من العنف والعنف الذي ميز المشهد السياسي في العالم العربي في العقود الأخيرة.

خاتمة:

ما نخلص إليه ونؤكد عليه أن خطاب الإصلاحية العربية، هو خطاب سياسي بالدرجة الأولى، ومن هنا كانت المسألة السياسية هي مسألة مركزية في هذا الخطاب، والهاجس الأكبر الذي كان يحركه هو هاجس النهضة والرقى واليقظة والتمدن، وبالتالي كان السؤال الهاجس هو: كيف نلحق بركب المتقدمين؟ وبصيغة أخرى: كيف نتجاوز التأخر التاريخي؟ ومن هنا كان إعجاب مفكرو النهضة بنموذج الدولة الحديثة وبالنظام السياسي الحديث

وبالمجتمع الحديث، وخاصة عندما سافروا إلى أوروبا ورأوا بالعين المجردة مظاهر الحداثة السياسية والاجتماعية في الدولة والمجتمع.

ولهذا تميز الخطاب السياسي النهضوي العربي الحديث في نهاية القرن التاسع عشر، بالانفتاح والاعتدال والتسامح، وبما انه خطاب يطغى فيه الهاجس السياسي فقد كان خطابا براغماتيا الى حد كبير، يبحث عن المصلحة، مصلحة الأمة في التقدم والرفق.

ولا غرو أن يكون خطاب الإصلاحية العربية، خطابا متصالحا مع العصر ومنفتحاً مع العالم عرف انتكاسة في نهاية عشرينيات القرن الماضي، إذ كان صدور كتاب " الخلافة أو الإمامة العظمى " للشيخ محمد رشيد رضا هو الخط الفاصل بين خطاب الإصلاحية ذو الروح النهضوية والذي قطع مع المفاهيم السياسية التراثية وخطاب الإحيائية الذي ربط خطوط الوصل مع مفاهيم الفقه السياسي والسياسة الشرعية والذي أعلن رفضه القاطع للمدونة السياسية الحديثة ولسردية الفلسفة السياسية بقسمها الإيديولوجيين الليبرالي والاشتراكي على حد سواء .

مصادر ومراجع

1. أحمد أمين. (2005). زعماء الإصلاح في العصر الحديث. بيروت: دار الكتب العلمية.
2. إيهاب الأخضر. (ديسمبر، 2024). إرهابات النظرية ما بعد الكولونيالية و تقوويض الخطاب الإستعماري-الخطاب الإدوردي نموذجاً. مجلة الساور للدراسات الإنسانية و الإجتماعية ، صفحة 541.
3. عبد الإله بلقزيز. (2000). أزمة الفكر السياسي العربي. دمشق: دار الفكر.
4. عبد الإله بلقزيز. (ماي، 1989). الخطاب السياسي النهضوي العربي. المستقبل العربي ، صفحة 9.
5. عبد المنعم حفني. (1999). موسوعة الفلسفة و الفلاسفة. القاهرة: مكتبة مدبولي.
6. علي أولملي. (1985). الإصلاحية العربية و الذولة الوطنية. بيروت: المركز الثقافي العربي.
7. علي عبد الرازق. (1988). الإسلام و أصول الحكم. الجزائر: موفم للنشر.
8. كمال عبد اللطيف. (1982). سلامة موسى و إشكالية النهضة. الدار البضاء: المركز الثقافي العربي.
9. كوثراني وجيه. (1988). السلطة و المجتمع و العمل السياسي. من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

10. محمد رشيد رضا. (1992). الخلافة أو الإمامة العظمى. الجزائر: موفم للنشر.
11. محمد وقيدي. (2002). لماذا أخفقت النهضة العربية. دمشق: دار الفكر.
12. نصر حامد أبو زيد. (1994). نقد الخطاب الديني. القاهرة: سينا للنشر.
13. وجيه كوثراني. (1988). السلطة و المجتمع و العمل السياسي. من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
14. samir amin. (1976). la natin arabe. paris: edition Minuit.